

مكية

الْبَلَاغُ فِي سُورَةِ النَّبَاِ

آياتها ٤٠

سُورَةُ النَّبَاِ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، والغالب على السور المكية أنها تقرر المبدأ والمعاد، لما تقدم من كفر الناس بذلك، ومن كفر بالمعاد لم ينفع معه وعظ ولا إرشاد، وفيها من آيات الله الظاهرة ومن حججه القاهرة ما تبين هذا الأمر، وتجليها وتقوم بها الحججة الرسالية على الناس، وفي هذه السور بيان قدرة الله **عَزَّجَلَّ** على ذلك وسهولة الأمر بالنسبة إليه، وما فيها من تقرير الناس بما ينظرونه من الآيات الكونية على صدق الآيات الشرعية، وقد تضمنت هذه السورة ستة محاور:

١- الأول: سؤال الكفار وتشككهم في يوم القيامة

٢- الثاني: ذكر آيات الله الدالة على قدرته وقوته، وغير ذلك من خصائص ربوبيته.

٣- الثالث: إثبات يوم الفصل، وهو يوم القيامة ويوم المعاد

٤- الرابع: بيان حال المشركين والكافرين في ذلك اليوم.

٥- الخامس: بيان حال المؤمنين وسعة فضل الله عليهم في ذلك اليوم.

٦- السادس: بيان شدة ذلك اليوم وما يقع فيه، من مجيء الملائكة، وما يلحق الناس على ما يأتي بيانه إن شاء الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تُوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون: ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾، أي: أن تساءلهم عن النبأ العظيم، قيل القرآن، وقيل: يوم القيامة وهو الصواب، فإنهم يتساءلون عن الساعة؛ لأنهم كانوا يكذبون بها، وقد وردت عدة أسئلة في ذلك، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٢﴾ [النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فهو من أعظم الأنباء التي تحصل على الناس إذ تتغير بها الأحوال، فتزول الحياة الدنيا ويشعر الناس في الحياة الآخرة، نعيم أو عذاب أبدي.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ بسبب شكهم وتكذيبهم للقرآن والسنة، ولو آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيّاً، وآمنوا بكل ما أخبر الله عزّ وجلّ به لزال عنهم هذا الاختلاف؛ إذ أن منشأ الاختلاف هو ترك الدليل كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾، أي: حقاً سيعلمون هذا اليوم وما فيه ﴿كَلَّا سَيَعْمُونَ﴾ تأكيداً لمعرفة ذلك اليوم، ولكن متى؟ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا هُوَ الَّذِي كُنَّا نَقُولُ قَدْ جَاءَنَا رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (٦) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ (١٣) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥) ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١٦) ﴿

ثم قال الله عزّ وجلّ مبيّناً قدرته العظيمة وأنه القوي الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يُغلب: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ألم نجعل لكم يا معاشر الكفار الأرض مبسوطة ممهدة، تنون فيها مساكنكم وتسلكونها لقضاء حوائجكم. وهذه نعمة عظيمة، فكم من جبال شاهقة لا يستطيع الإنسان أن يطأ عليها أو يتسلقها، ولو كان هذا هو الحال لشق على الناس، ولكن جعل الله الأرض ممهدة تارة أودية، وتارة وهاد، وتارة تلال، وغير ذلك، ممهدة للمشبي، والزراعة، والسكنى.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ جعل فيها جبالاً راسيات تثبتها؛ حتى لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَانْحَرْنَا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) [النحل: ١٥].

ونصب الجبال من آيات الله عزّ وجلّ الباهرات، ودلائله العظيمة منها بيض وغرابيب سود، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (٢٧) [فاطر: ٢٧]، فتنوعت حجارتها وألوانها.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧) [الواقعة: ٧] جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ذكراً وأنثى، جعل بينهم مودة ورحمة وجعل بينهم التناكح والتناسل؛ لقضاء الشهوة وحصول الإربة.

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي: راحة وسكون، وهذا من دلائل قدرة الله، فإن الإنسان إذا كان في حركة دائمة دائبة لحقه الفتور، وربما ضعفت قواه، وهزل جسمه، ولكن جعل الله له النوم؛ للدعة والراحة والسكون: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِنَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٣) [القصص: ٧٢-٧٣].

وإذا عُدِمَ النوم من الإنسان دل ذلك على مرض، وعلة حاصلة به، ويذكرون أن النوم الطبيعي ست ساعات، وللطفل أغلب اليوم، وكلما تقادم في العمر يقل نومه، وللنوم فوائد منها:

١- ذهاب الهم والحزن، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، فكم من إنسان إذا حصلت به مصيبة وحصل على شيء من النوم يقوم وقد انكسرت مصيبتته وهدأ قلبه.

٢- راحة البدن، إلى غير ذلك من المصالح، حتى أن الله جعله من الآيات الباهرات، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) [الروم: ٢٣].

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يغطي البسيطة، ويلبس الناس فيتغطون به عن ضوء النهار، ويتغطون به في كثير من حوائجهم، فيمشي فيه المتخفي ويرتاح فيه المتعب.

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ سبب لتحصيل الرزق، ويخرج الناس من بيوتهم لطلب أرزاقهم وقضاء حوائجهم، والليل والنهار آيتان عظيمتان يدلان على قدرة الملك القهار سبحانه وتعالى. وقد جعل الله عز وجل لكل من الليل والنهار سلطاناً، فالشمس سلطان النهار الظاهر، والقمر سلطان الليل الباهر.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي: رفع الله عز وجل فوق الأرض سبع سماوات شديدة البناء بغير عمد، قال الله عز وجل: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧) ﴿ رَفَعَ سَعَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨].

وقد جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَرْشِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ (١).

(١) أخرجه ابن بطه في «الإبانة» (١٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٢).

ومع ذلك تكون هذه السماوات العظيمة في قبضة الله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ويلحقها التشقق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (١) [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ أَنْزِلُ الْمَلَكِكَةَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥) ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦].

وزين سبحانه هذه السماوات بمصاييح، وجعلها علامات يهتدى بها، ورجومًا للشياطين، وفي هذا رد على أصحاب الهيئة الجديدة الذي يقولون بتوسع العالم، وهو ما يسمى نظرية الانفجار العظيم، ويستدلون بقول الله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وهذا استدلال فاسد، فإن تفسير السلف يقضي على أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض واسعة، فإن أصحاب الهيئة لا يؤمنون بسماوات طباقًا، ولا بعرشٍ ولا كرسي.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ أي: خلق الشمس، ﴿سِرَاجًا﴾ أي: ذات نور، ﴿وَهَاجًا﴾ أي: ذات حرارة، فلو كانت ذات نور بغير حرارة لربما لحق الناس الفساد في معاشهم وغير ذلك، ولو كانت ذات وهاج ولم تكن ذات نور للحق الناس كثير من البلاء، ولكن من حكمة الله جعلها سراجًا وهاجًا، فيستفيدون من نورها ويستفيدون من حرارتها، تنضج به الفواكه، وتشف به المبللات، ويحصل به خير عظيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أنزل الله من المعصرات، قيل: السماوات، وقيل: الرياح، وقيل: السحاب وهو الصحيح، وسميت معصرات؛ لأنها تعصر بإذن الله عز وجل فينزل منها المطر، ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي: أنه ينزل متدافعًا قويًا، ومنه حديث النبي ﷺ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْعَجُّ، وَالثَّجُّ» (١). العجُّ: هو رفع الصوت بالتلبية والتكبير، والثجُّ: هو إنهار الدم.

ومنه ذلك الحديث: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ اسْتَحَاضُ حَيْضَةً كَثِيرَةً شَدِيدَةً، فَمَا تَرَى فِيهَا قَدْ مَنَعَنِي الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ؟ فَقَالَ: «أَنْعَتْ لِكَ الْكُرْسُفِ؛ فَإِنَّهُ يُذْهِبُ الدَّمَ». قَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَاتَّخِذِي ثَوْبًا»، فَقَالَتْ: هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّمَا أُتِجُّ نَجًّا» (٢).

فيقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً عَظِيمًا نَافِعًا﴾ ﴿ثَجَّاجًا﴾ كثيرًا، ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ السبب في إنزال هذا الماء ﴿حَبًّا﴾ من الذرة والشعير والقمح والرز وغير ذلك، ﴿وَنَبَاتًا﴾ من الفواكه والأعلاف، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ جمع جنة، وهو ما يجن أي: يغطي بشجره، ﴿أَلْفَافًا﴾

(١) أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤)، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧)، عَنْ حَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يلتف بعضها على بعض لكثرة أشجارها، فهي حدائق غلبًا يغطي بعضها بعضًا؛ لكثرة أشجارها وطولها وعظيم خلقتها.

وهذه آيات باهرات تدل على عظمة الخالق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فإنه ينزل المطر على الأرض القاحلة فإذا ما تنبت النبات وتظهر الزهور وتنمو الأشجار بعد أن كانت ميتًا، وكل هذا يدلل به الله **عَزَّوَجَلَّ** على قدرته في إحياء الناس بعد إماتتهم.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ فَأَتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاعِنِينَ مَثَابًا ﴿٢٢﴾ لِلثَّائِبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقِفًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَأَقَا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال الله **عَزَّوَجَلَّ** خبرًا عن يوم القيامة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي: يوم القيامة الذي يفصل الله **عَزَّوَجَلَّ** فيه بين العباد ﴿كَانَ مِيقَتًا﴾ له وقت معلوم لا يتأخر عنه ولا يتقدم، كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَنَّى أَمُرُّ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ثم بين عظم هذا اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الْأُصُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الْأُصُورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

٥٥ والصور: قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل نفختين:

الأولى: لقبض أرواح المخلوقات، **والثانية:** لإحيائها، كما قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الْأُصُورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، يصعقون كصعقة نفس واحدة، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.

وفي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عَنِ النَّبِيِّ **ﷺ** قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: آيَةٌ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: آيَةٌ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: «آيَةٌ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرْكَبُ الْخَلْقُ» (١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **ﷺ**: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ التَّقَمَ الْقُرْنُ، وَاسْتَمَعَ الْأُذُنُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ» (٢)، وفي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في «الصحيحين» قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣١).

رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمَرَ الْمُسْلِمَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُوا مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِنِّي اسْتَشْنَى اللَّهُ» (١).

﴿فَنَاتُونَ أَوْجَابًا﴾ أي: جماعات، تندافع الرجال والنساء. حفاة عراة غرلاً بهماً، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُمِئَّهُمْ ذَلِكَ» (٢)، ويكرم المؤمن ويساق الكافر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ (٨٥) ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ (٨٦) [مريم: ٨٥-٨٦].

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وفي قراءة ﴿وَفُتِحَتْ﴾، هذه السماء التي تُشَاهَدُ الْآنَ مغلقة محكمة تفتح وتصير أبواباً وطرفاً، تنزل منها الملائكة حين يُحْشَرُ النَّاسُ إِلَى الْمَحْشَرِ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلِّ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ومبدأ ذلك قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ فهذه الجبال المرتفعة تسير يوم القيامة وتذهب حتى لا يبقى لها أثر، فيوم القيامة يجعلها الله كالعهن المنفوش كما قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٥) [القارعة: ٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٦) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (١٠٧) [طه: ١٠٥-١٠٧]، ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿ [النمل: ٨٨].

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فجعل الله عَزَّجَلَّ للجبال حالات:

﴿الاولى﴾: أنها مثبتة للأرض.

﴿الثانية﴾: أنها تتحرك وتمر كمر السحاب.

﴿الثالثة﴾: أنها تتطاير وتكون كالعهن المنفوش.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

الرابعة: أنهم يرونها كالسراب، كما في هذه الآية: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ يرون جبلاً وليست بجبال وإنما أثرها، ثم: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْسِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

ثم قال عز وجل مخبراً عن النار وما فيها من أهوال أعادنا الله عز وجل منها: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مرصدة للكافرين لا سبيل إلى الخلاص منها، وقيل مرصدة في طريق جميع الناس، لا يصل المؤمنون إلى الجنة إلا بالمرور عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ مَنكُم مَّنْ لَا أُورِدُهُهَا كَأَن عَلَىٰ رِجِّكَ حَمَامًا مَّقْضِيًّا﴾ [٧١] ثم تَجِيءُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنَّتًا [٧٢] ﴿ [مریم: ٧١-٧٢].

وهذا وعيد عظيم يهدد الله به المشركين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ يا معاشر المشركين ﴿كَانَتْ﴾ أي: ما زالت ﴿مِرْصَادًا﴾ مرصدة لكم تترصدكم ولا سبيل إلى الخلاص منها ﴿إِذَا الْقُوفِيهَا سَمِعُوهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧].

﴿لِلظَّالِمِينَ مَبَابًا﴾ للمجاوزين لأمر الله، طغوا وتجاوزوا الأمر فلم يفعلوه، والنهي فارتكبه، وأعظم ما وقعوا فيه الشرك بالله عز وجل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يلبثون فيها مدداً طويلة قيل بأن الحقب ثمانون سنة والسنة اثني عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً، وكل يوم بألف سنة مما تعدون والله أعلم.

واستدل بهذه الآية بعضهم على فناء النار، حيث زعم أنهم يلبثون أحقاباً ثم يخرجون منها، وهذا غير صحيح؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

ويقول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وإنما المعنى هنا أنهم يمكثون مكثاً طويلاً ممتداً، والعرب قد تأتي بالكلمة التي ظاهرها الانقطاع وتريد بها الاستمرار.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يطعمون أو يجدون في هذه النار برداً، برودة ماء وجسم ولا برودة جو، وقيل: البرد هنا النوم على تفسير لبعض أهل العلم لا يذوقون فيها نومًا، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون ماء سائغاً يذهب عطشهم، أو عصيراً نافعاً يروي ضمئهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الذي انتهى حره، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَن يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

يَسْتَوِي أَلْوَجُوهٌ يَنْسُكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿ [الكهف: ٢٩].

وقوله: ﴿وَعَسَاقًا﴾ أي: الذي قد انتهى برده، وهو الزمهرير، وكأنه من المقابلة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ حارًا، ﴿وَعَسَاقًا﴾ باردًا، وقيل: العساق هو ما يسيل من جلود أهل النار، فيشربونه عذابًا أليمًا، والله المستعان.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ سبب الذي هم فيه أن الله يجازيهم بأعمالهم الفاسدة كما تدين تدان:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: السبب الذي أوردهم إلى هذا العذاب وجزوا به ﴿كَانُوا لَا يَزُجُّونَ حِسَابًا﴾

كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ولا يؤمنون بأن الله يبعث العباد ويجازيهم على أعمالهم، مع أن الله عَزَّجَلَّ قد بين ذلك على ألسنة رسله وفي محكم كتبه التي أنزلها.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الشرعية التي أوحاها إلى أنبيائهم ورسلمهم، وربما الكونية حيث زعموا أن معه

معينًا أو ظهيرًا أو نصيرًا، ﴿كَذَابًا﴾ أي: تكذيبًا، يعني أنهم تداوا في التكذيب والمغالطة والإيهام.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وهذا عام في كل عمل دق أم جل، صغر أم كبير، قولي أم فعلي، ﴿أَخْصَيْنَهُ

كِتَابًا﴾ حفظناه مكتوبًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ

وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]، فالله عَزَّجَلَّ يعلم ما هم عليه، زد على ذلك أن الملائكة

تكتب أعمال العباد، وليس هذا فحسب، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [النور: ٢٤].

﴿فيحفظ عمل الإنسان بأمر﴾

الأول: أن الله عَزَّجَلَّ مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

الثاني: الملائكة الذين سطروا تلك الأعمال والأقوال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

﴿١٨﴾ [ق: ١٨].

الثالث: شهادة الجوارح عليهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى

رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظُّهَيْرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا:

«لَا، قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي

نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَبَلَغَى الْعَبْدُ،

فَيَقُولُ: أَيُّ قُلِّ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزْوَجَكَ، وَأَسْحَرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ

وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَطَنَّتْ أَنْتَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَحَّرَ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَطَنَّتْ أَنْتَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُنْبِي بِخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبَعْتُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَحِمِّهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَحِمُّهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعَذِّرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ» (١).

الرابع: إخبار الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤) ﴿يَا نَبَأَ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (٥) [الزلزلة: ٤-٥].

﴿فَذُوقُوا﴾ هذا العذاب الشديد، ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ لا رحمة لهم، مع أن الله هو الرحمن الرحيم، لكن قد قال عن نفسه: ﴿وَاكْتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَيْضًا عَلِيمٌ﴾ (١٠٦) ﴿يَوْمَئِذٍ نَسُفُ السَّمَوَاتِ وَتَكُونُ سُدًّا أَبَدًا﴾ (١٠٧) ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٨) ﴿فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ (١٠٩) [المؤمنون: ١٠٨]، فعوذ بالله من حال أهل النار.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٣١) ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ (٣٢) ﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ (٣٣) ﴿وَكَاسِدًا هَاقًا﴾ (٣٤) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا﴾ (٣٥) ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (٣٦) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (٤٠) ﴿﴾

ولما ذكر الله عَزَّجَلَّ حال الكافرين في الآخرة ثنًا بحال المؤمنين جمعًا بين النذارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، والقرآن مليء من هذا ترغيب، وترهيب، فتارة يذكر الله أحوال الكافرين ثم يثنى بحال المؤمنين، وتارة يذكر الله حال المؤمنين ثم يثنى بحال الكافرين، وبضدها تبيين الأشياء.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله عَزَّجَلَّ وقاية بفعل المأمور وترك المحذور، وهم المذكورون في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢-٥]، والمذكورون في سورة آل عمران: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبْتَظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ مِن رَّبِّهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

﴿مَفَازًا﴾ لهم فوزًا، وقيل: متنزهاً، ولا يمنع أن لهم فوزًا عند الله ولهم متنزه، يكونون فيه تذهب فيه أحزانهم، وتهدأ فيه أرواحهم، وتسكن فيه أجسامهم، زد على ذلك أن الله ينعمهم بأنواع النعيم المقيم الذي لا ينقطع كما قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣].

﴿حَدَائِقَ﴾ هذا المتنزه الذي لهم، فيه حدائق جمع حديقة، وهي قطعة من الأرض ذات ماء، فيه أنواع الأشجار، والشمار، والزهور، والروائح الطيبة، وغير ذلك، ﴿وَأَعْنَابًا﴾ وإن كانت الأعناب من ضمن الحدائق إلا أن الله ذكرها؛ لعظيم جمالها وطعمها ورغبة الناس فيها.

﴿وَكُوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾ وفي هذه الحدائق، والمتنزهات التي أعدها الله للمؤمنين في جنات النعيم ﴿كُوَاعِبَ﴾ نساءً نواهد لم تتكسر أئدائهن؛ لطول السنين أو لكثرة الأولاد. ﴿أَرْبَابًا﴾ متقاربات في السن، قيل ثلاث وثلاثين سنة، وهذا من أجل ما يتبع به الرجل فليست بالصغيرة التي لا تشتهي، ولا بالكبيرة التي قد زهدت في ذلك، وقد قال الله عَزَّجَلَّ في وصف هذه الكواعب ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ لِّجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]، فهن أبكاراً على أي حال يأتيها زوجها، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل: يا رسول الله، أنفصي إلى نساتنا في الجنة، قال: ﴿إي والذي نفسي بيده، إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء﴾^(١).

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يشربون فيها خمراً لا لغو فيه ولا تأثيم، ويشربون من نعيمها وعيونها وأنهارها في أكواس تتدفق مليئة، لا يعترها نقص ولا تغير حال، وإنما أحسن الملابس

(١) أخرجه البزار (١٠٠٧٢)، والحديث في «الصحیح المسند» (١٣٨٤) لشيوخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمطعم والمشرب، وحال الجنة كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغَيَّرْ طَعْمَهُ، وَأَنهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقد وصف الله عَزَّجَلَّ هذا الشراب في سورة الدهر في عدة مواطن: قال تعالى: ﴿عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨]، أي: أنهم يشربون شرابًا مريئًا لا ينعصون به، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، وقوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، إلى غير ذلك.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة، ﴿لَعَوًا﴾ كلامًا سيئًا ولا أذى، ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ أي: لا يكذب بعضهم بعضًا، وهذا كقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعَوًا وَلَا تَأْتِيهَا﴾ [الغاشية: ١١].

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أن هذا النعيم جزاءٌ للأعمال الصالحة التي بادر بها المؤمنون في الدنيا من ربك الحافظ لك ﴿عَطَاءً﴾ يعطيك، ﴿حِسَابًا﴾ واسعًا لا نقص فيه، ولا قلة، ولا خشية انقطاع. ثم بين الله عَزَّجَلَّ كمال عظيمته فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: أن هذا الرب الذي أعطاك هذا العطاء الواسع العظيم الدال على كرمه هو رب السموات والأرض وما بينهما، وهو الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد جاءت قراءة: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾^(١) فجعلت الجملة مستأنفة، وكلا المعنيين صواب، فالجنة جزاء من رب السموات والأرض الرحمن، وكذلك رب السموات والأرض وما بينهما هو الرحمن. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يستطيع أحدٌ مخاطبته إلا بإذنه.

﴿يَوْمَ﴾ أي: هذا في يوم القيامة، ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل، وقيل: أرواح بني آدم، وقيل: غير ذلك، والقول بأنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أصح، ﴿وَالْمَلَكَةُ﴾ تكون ﴿صَفًّا﴾ محيطًا بالناس، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: لا يتكلم الناس، ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من أذن له أن يتكلم،

فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ»^(١).

﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ حقًا؛ لأن: ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ﴾ الذي سيكون ولا محالة، وفي قول النبي ﷺ: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ»^(٢)، فلا يجوز أن يتكلم فيه بالباطل، إنما يتكلم بالباطل في هذه الدنيا التي جمعت حقًا وباطلًا، وضلالًا وهدى، وإيمانًا وكفرًا، أما ذلك اليوم فيوم حقٍ وصدقٍ، فلا يستطيع أن يتكلم أحد إلا بالحق، وإن تكلم بغير ذلك فضح على رؤوس الأشهاد.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴾ أي: في الدنيا ففي يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يقدم أو يؤخر، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ﴾ يا معاشر المكلفين من الجن والإنس ﴿ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴾ سبيلًا وأوبًا ورجوعًا، كما قال: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٣) [النور: ٣١].

ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾: خوفناكم بهذه الآيات البينات والدلائل الواضحات التي أنزلها على رسوله ﷺ، ﴿ عَذَابًا ﴾: موجعًا، ﴿ قَرِيبًا ﴾: لا يتأخر ولا يتخلف، وما بين العبد وبينه إلا أن يموت، فقد كَانَ عُمَانُ بْنُ عُفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يَبْلُغَ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذَكَّرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»^(٤).

ويكون هذا العذاب القريب: ﴿ يَوْمَ يُنظَرُ الْمَرْءُ ﴾ الرجل والمرأة، والجنى والإنسى، ينظر ما قدمت يدها ما قدم من الأعمال، وذكر اليدين؛ لأن كثيرًا من الأعمال يتعاطاها باليدين، والواقع أنه يجد كل الأعمال ما قدم فرجه ويدها، ورجلاه، ولسانه، وسمعه، وبصره، نسأل الله السلامة.

﴿ يَوْمَ يُنظَرُ الْمَرْءُ ﴾ كل إنسان ينظر أعماله كما في الحديث: «فَيُنظَرُ أَيَّمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيُنظَرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيُنظَرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ»^(٤).

وكما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾^(٤٩) [الكهف: ٤٩].

(١) متفق عليه، البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ ﴾ بلسان الحال أو المقال، وقيل: الكافر إبليس فيكون من العام الذي أريد به الخصوص وذلك أنه سخر من أصل خلقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أي: أنه كان ترابًا ولم يخلق أصلًا، وقيل: المعنى لما يرى من أن الله عَزَّجَلَّ أحال الحيوانات إلى تراب بعد القضاء بينهم، يقول: يا ليتني كنت مثل هذه الحيوانات أصير ترابًا وأسلم من العذاب الأليم، والخزي العظيم، نسأل الله السلامة.

والمحمد لله رب العالمين.

